المقتطف

الجزء الرابع من المجلد الثامن عشر بعد المئة

April 1951 — ابريل سنة ١٩٥١

سيكولوجية الحنابلة

طبقات الحنابلة (١)

للأستاذ مصطفى عبد اللطيف السحرتي

كتاب ترجمة لحياة سبعة وتسعين علماً من أعلام الحنابلة عاشوا في القرنين الخامس والسادس الهجري ٤٦٠ هـ — ٥٤٠ هـ وضعه العالم الثقة أبو الفرج بن رجب (٧٣٦ هـ — ٧٩٥ هـ) وقام بنشره وتحقيقه العالم الفرنسي المستشرق هنري لاووست، والأستاذ السوري النابغة محمد سامي الدهان ، وأخرجه المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق ، في هذا العام .

ويقع الكتاب في ثلاثمائة صفحة ، ويشتمل على ترجمة لأعلام الحنابلة في القرنين الخامس والسادس الهجري ، وتمهيد مركز بقلم الناشرين عن نشوء المذهب الحنبلي ، وأعلام المترجمين لرجالاته من أمثال الخلال والخرقي والفراء ، وترجمة لحياة « ابن رجب » وآثاره ومؤلفاته . وذيل الكتاب بسلسلة فهارس جامعة .

وقد اعتمد المحققان في بحث هذا المخطوط على ثلاث نسخ ، كتبت الأولى بعد خمس سنوات من وفاة المؤلف ، وكانت عمدتهما في النشر ، والأخريان كتبتا بعد نيف وثلاثين سنة ، وهذه النسخ الثلاث من أقدم النسخ وأوثقها . (المقدمة ص ٢٨) .

(١) الكتاب تأليف أبي الفرج بن رجب — نشر وتحقيق الدكتورين : هنري لاووست وسامي الدهان — اخراج المعهد الفرنسي بدمشق ١٩٥١

ويشهد المطلع على هذا الكتاب بمبلغ الجهد العظيم الذي بذله المحقق في إبراز هذا المخطوط إلى عالم النور لما قام به من تصويب للكلمات والنصوص المصحفة والمحرفة في المخطوطات التي اعتمد عليها، ولا يسعه إزاء هذا، إلا أن يحمد لها صنيعها لاحياء التراث العربي، من ناحية، وتزويد الفكر الحديث بمادة خامة صالحة للبحث السيكولوجي من ناحية أخرى.

وإذا احتفى فريق من الناس بما ضمّ هذا الكتاب من تراجم كثيرة لرجال أتقياء متزهدين، وما وعى من أحاديث نبوية، ومسائل فقهية منثورة هنا وهناك، وما تحلى به من تصانيف في الزهد أو الحب العفيف، فإن احتفاء المصريين، وفرحتهم به مضاعفة، لأنهم يقفون فيه على طابع عجيب من الناس، متغال في الذاتية، والغ في الانطوائية، محصور في مثالية روحية، وهذا الطابع من الناس موجود في كل عصر، ولكن شخوص هذا الكتاب مجتمعة، وتبيان سلوكهم، وتأملاتهم، وأحلامهم وأشعارهم، وثوراتهم، تمد الباحث السيكولوجي بعدد وفير لدراسة هذا الطابع الشعوري الغريب.

فجلهم فار إلى العزلة، نافر من الحياة، كاره لما فيها، متوله بالله. يجد في كنفه راحته وطمأنينته، وجذله وسعادته وهذا طابع الذاتي المحب لذاته وأهميته.

وبعضهم كان يتكتل حقده على منكرات المجتمع، فيحمل على ناسه وأحداثه، بلسانه، وفي بعض الأحيان بيده، — فالشريف أبو جعفر — وكان من أعلام الحنابلة كان شديد القول واللسان على أهل البدع، ينكر المنكرات بيده ولسانه (ص ٢٢) — وأحمد بن العلثي — النقاش يرى مرة في دار السلطان صوراً مجسمة من الاسفيداج، فيكسرها كلها لأنها منكر (ص ١٣٠) — وأبو سعد البقال — يلقى مغنية خارجة من دار تركي، فيقبض على عودها ويقطع أوتاره (ص ١٣٣)، وفئة أخرى كانت تهاجم المواخير وتنهب المفسدات والمفسدين، وتأتي النبيذ.

ومثل هذه الأعمال العدوانية لها دلالتها السيكولوجية، ويمكن أن نجد تفسيرها في المركبات الأبوية، أو الرغبات المكبوتة، أو الأعراض الذهانية، التي تبدو مظاهرها لدى المضطهدين، أو المصابين بالملانخوليا، أو حالات الفصام.

وكثير منهم عكف على العلم، واشتغل بفنونه النظرية، وقضى أكثر ليله ونهاره في التفكير — ومن أذكى أذكيائهم، — أبو الوفاء بن عقيل —، الذي كان يقول: —

«إني لا يحل لي أن أضيع ساعة من عمري، حتى إذا تعطل لساني من مذاكرة ومناظرة،

وبصري عن مطالعة ، أعملت فكري في حال راحتي وأنا مستطرح ، فلا أنهض إلاَّ وقد خطر لي ما أسطره (ص ١٧٦) وقد صنف مجلدات كثيرة في التفسير والفقه ، والأصول ، والنحو ، واللغة والشعر والحكايات (ص ١٨٨) — وقد بلغ من هيامه بالعلم أنه يخشى على ضياع وقته في أثناء تناول أكله ، فكان يختار سف الكعك وتحسيه بالماء ، على الخبز ، توفراً على المطالعة ، أو تسطير فائدة لم يدركها ! (ص ١٧٧) .

ولم يقف مفكروهم على علم الحديث والعلوم الفقهية ، بل تنوعت اهتماماتهم العلمية ، والادبية ، فاهتم — أبو الحسن بن الزاغوني — بالمسائل الحسابية ، وله كراسة في عويصها (ص ٢١٨) وبرع — أبو بكر قاضي المارستان — في علوم كثيرة منها الحساب والجبر ، والمقابلة والهندسة ، وله فيها تصانيف (ص ٢٣١) — .

وتضلع — أبو منصور الجواليقي — في علم اللغة ، والادب ، وصنف كثيراً في هذه الناحية ، وأمثال هؤلاء العلماء ، والادباء المتضلعين ، يغلب الطابع الفكري المنطوي ، المتميز بالتأمل والتحليل ، والعناية بالنواحي النظرية دون العملية .

وإلى جانب هؤلاء المفكرين ، ألم كتاب الطبقات بشعراء ، ينم شعرهم على صفاء ذهن ، ورقة شعور ، والملحوظ في شعرهم ، اتجاهه الى الناحية الانفعالية ، ودورانه حول الزهد ، والآخرة ، والحب العفيف ، وهذا يؤيد طابعهم الشعوري المنطوي ، ومن خير شعرائهم — أبو محمد التميمي — الذي جمع شعره بين الزهد والحب ، فقال في الزهد :

هلموا لنبكي قبل فرقة بيننا ... فما بعدها عيش لذيذ ومجمع
ودع التصابي والخلاعة والهوى ... وأم طريق الحق ، فالحق أنفع
وخذ جنة تنجي وزاداً من التقى ... وصحبة مأمون ، فقصدك مفزع[1]

ومن شعره الوجداني المتحرك ، البديع التصوير قوله : —

مررنا على رسم الديار فسلمنا ... وقلنا له : ياربع أين نأوا عنا ؟!
وجدنا بدمع كالرذاذ على الثرى ... فصم المنادى فانصرفنا كما كنا
وما ذاك إلا أن رسم ديارهم ... به كالذي تلقى فقد زادنا حزنا
فلما أيسنا من جواب رسومهم ... نزلنا فقبلنا الثرى قبل أن رحنا

ومن شعرائهم المطبوعين — جعفر السراج — وكان ظريفاً لطيف الأخلاق ، بعكس

(١) كتاب طبقات الحنابلة صفحة ١٠١

أغلب الحنابلة ، وقد نظم كتباً كثيرة ، فنظم في المسائل الدينية كثيراً ، كنظمه في مناسك الحج ، وله شعر وجداني رقيق ، ومن ذلك قوله : —

بان الخليط فأدمعي وجداً عليهم تستهل
وحدا بهم حادي الفرا ق من المنازل فاستقلوا
قل للذين ترحلوا عن ناظري والقلب حلّوا
ما ضرّهم لو أنهلوا من ماء وصلهم وعلوا

وكذلك كان — أبو الخطاب الكلوذاني — من شعرائهم الظراف ، وله قصيدة دالية شهيرة في السنة ، وله شعر وجداني عذب ، ونوادر شعرية لطيفة ومن شعره الوجداني قوله : —

وكم ذا التجني منك في كل ساعة أما لفؤادي من رضاك نصيبُ
لئن كان جني عندكم فهو والهوى منيعٌ ولكن الحبيب حبيبُ
وإن كان ذنبي عندكم كلفي بكم فما أنا منه ما حييت أتوب
غرامي بكم حتى الممات مضاعفٌ وقلبي لكمْ عندي عليّ رقيبُ

ومن لطائفه الشعرية رده على هذه الفتوى : —

قل للامام أبي الخطاب مسألة جاءت إليك وما يرجى سواك لها
ماذا على رجل رام الصلاة فمذ لاحت لناظره ذات الجمال لها ؟

إذ كتب على هذه الفتوى يقول : —

قل للأديب الذي وافى بمسألة سرت فؤادي لما أن أصخت لها
إن التي فتنته عن عبادته خريدةٌ ذات حسن فانثنى ولها
إن تاب ثم قضى عنه عبادته فرحمة الله تغشى من عصى ولها !

والملحوظ أن اهتمام الحنابلة بالعلم النظري أو الأدب كان اهتماماً عارضاً ، وجل اهتمامهم كان محصوراً في علم الحديث والفقه ، وتفكيرهم في هذين العلمين مقصوراً على الأثر ، أي ما يروى عن النبي والخلفاء والصحابة والتابعين ، فهم اتباعيون لا ابتداعيون فأصول مذهبهم ، وفتاواهم الفقهية تنتهي كلها إلى السنة وتأخذ من معينها ، ولهذا تجافوا من رأي ، والنظر في علم الكلام وهو العلم الذي يتصف العقائد ، والفلسفة والمنطق والتصوف وتفكيرهم على مقتضى هذا ، كان تفكيراً واقفاً على أوة المحافظة ، والاستنباط ، وص١٣٠.

عناد

يكن لهم هذا التفكير المذهبي الخلاق القائم على الخيال والاصالة ، وإذا كان قد وجد فيهم كثير من المجتهدين في الفقه ، أمثال الفراء أو ابن تيمية وابن القيم وغيرهم ، فقد كان اجتهادهم ، متصلاً بخيوط الأثرية ، فاذا أخذوا بالقياس أو الاستصحاب أو المصالح المرسلة ، فهو اعتماد على ما كان يأخذ به السلف الصالح عند عدم وجود نص قرآني أو حديث ، ولا نعرف أحداً منهم تحلل من الأثرية إلا النادر ، ونذكر منهم — الطوفي — الذي كان يقدم المصلحة المقطوع بها على النص القطعي[1] وقد كان أكثر اجتهاد الحنابلة موجهاً إلى الأحوال الشخصية والمعاملات ، أما العبادات والعقائد فقد كانت آراؤهم فيها نقلية أثرية .

وفي الكتاب الذي بين يدينا ، لا نجد من الأعلام الذين تحدث عنهم — ابن رجب — إلا نوادر من المجتهدين ، والمخرجين ، أمثال — علي بن عقيل البغدادي — ، وعبد الله الأنصاري — ، والشريف أبو جعفر — ، وأبو الخطاب البغدادي (الكلوذاني) وقد أورد — ابن رجب — بعض المسائل التي تفرد بها — ابن عقيل ، ومنها : (١) إن النساء لا يجوز لهن استعمال الحرير إلا في اللبس دون الافتراش والاستناد ، (٢) إن الربا لا يجري إلا في أعيان نص عليها ، (٣) إن الوقف لا يجوز بيعه وإن خرب (ص ١٩٠) — (٤) التسوية بين الذكور والإناث من الأولاد في العطية ، (٥) الزوجة إذا كانت نضوة الخلق لا يمكن زوجها وطأها إلا بجناية عليها ، فأنه يملك فسخ زواجها .

ولأبي الخطاب البغدادي (الكلوذاني) مسائل كثيرة تفرد بها ، وقد أثبتها المؤلف في الكتاب (ص ١٤٧ – ١٥٤) نذكر منها : (١) إن الشاهد لا يجوز له أن يشهد على آخر في كتاب مكتوب عليه حتى يقرأه عليه (ص ١٥١) — (٢) إذا غاب الزوج قبل الدخول ، فطلبت المرأة ، المهر ، فان الحاكم يراسل الزوج ويعلمه بالمطالبة بالمهر ، فان لم يبعث به إلى الزوجة باع عليه ملكه .... (ص ١٥١) — (٣) إذا رأى إنساناً يغرق ، يجوز له الافطار ، إذا تيقن تخليصه من الغرق ولا يتسع المجال لذكر ما تفرد به هؤلاء الأعلام . وفي تضاعيف هذا الكتاب مسائل تشد الالتفات ، منها ما يتصل بالعبادات ومنها ما يتصل بالمعاملات ، ومما جاء في العبادات قول — أبي الحسن بن الزاغوني — (ص ٢١٩ —) : إن المشهور من المذهب ، أن السم نجس ، وفي المذهب ما يحتمل أنه ليس بنجس ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم ، أكل من الذراع المسمومة .

ومن هذا المثال الأخير يتضح أن بعض الحنابلة في اجتهادهم ، وإن خالفوا مذهب

(١) كتاب أحمد بن حنبل — تأليف الاستاذ الشيخ محمد أبو زهرة صفحة ٣٠٤

إمامهم ، كانوا يعتقدون على حادث أزلي .

والمأثور عن الحنابلة بعامة ، تشددهم في مسائل العبادات وفي المعتقدات ، وتسامحهم في النواحي التي تتصل بالناس كالأحوال الشخصية والمعاملات .

فهم يتشددون في مسائل الطهارة والنجاسة . فسؤر الخنزير نجس ، وكذا الاناء الذي ولغ فيه ، وأكل لحم الابل ينقض الوضوء ، ولم يقل بهذا أحد من الأئمة الثلاثة (١) — وأن المضمضة والاستنشاق واجبان في الوضوء مع أنهما من السنن ، وتارك الصلاة كافر — وشارب الخمر في رمضان يغلظ له الحد ، وإلى جانب هذا ، فانهم يؤمنون ايماناً مطلقاً بالقضاء والقدر خيره وشره ، (٢) ويؤمنون بالمعنى الظاهر في جميع آي القرآن فيعتقدون برؤية الله يوم القيامة ، استناداً على الآية الكريمة : « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » فاذا ما ووجهوا بقوله تعالى : « لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار » أجابوا بأن المقصود من هذه الآية هو عدم رؤية الله في الدنيا لا في يوم القيامة .

✡

وواضح مما تقدم أن مجال أغلب الحنابلة السيكولوجي كان مجالاً ضيقاً تأثر بعوامل وراثية عاطفية ، وبيئية صارمة ، وعقلية مقصورة على ناحية بعينها من التفكير ، وبهذه المؤثرات المختلفة تحدد طابعهم الذاتي الوالغ في الذاتية ، والانطوائي الغارق في الانطوائية ، والسلفي العاكف على الماضي . وكان من آثار هذا الطابع ، أن جانبوا المجتمع ، وإذا اضطروا إلى الاتصال بالناس للوعظ أو التدريس ، أو الدراسة ، كابدوا من هذا ضيقاً نفسياً ، ولاقى الناس من بعضهم عنتاً ، لصراحتهم المفرطة ، وابتعادهم عن المداراة ، وقسوتهم بل غلظتهم على الناس ، وجرأتهم على الحكام والأمراء .

فهذا — أبو سعد البقال — يعظ الوزير نظام الملك بجامع المهدي يقول :—

« إن من هو على الخليقة أمير فهو في الحقيقة أجير ، قد باع زمنه وأخذ ثمنه » ويقول : « وأنت يا صدر الاسلام ، وإن كنت وزير الدولة ، فأنت أجير الأمة ، استأجرك جلال الدولة بالأجرة الوافرة ، لتنوب عنه في الدنيا والآخرة (ص ١٣٣، ١٣٤) وهذا — أبو علي البناء — كان شديداً على أهل الأهواء (ص ٤٢) وهذا — ابن عقيل — يكتب مرة إلى ابن جهير الوزير ، كتاباً جهماً عنيفاً يقول فيه :—

« ترى بأي وجه تلقى محمداً — صلى الله عليه وسلم . . . ثم كيف تطالب الأجـ

(١) كتاب أحمد بن حنبل — للأستاذ محمد أبو زهرة ص ٥٠٣ (٢) المرجع السابق

بتقبيل عتبة ولثم ترابها وتقيم الحد في دهليز الحريم صباحاً ومساء ، على قدح نبيذ، وفرح الحرام في المسكر المجمع على تحريمه : هذا مضاف إلى الزنا الظاهر بباب بدر ، ولبس الحرير على جميع المتملقين والأصحاب ! »

« يا شرف الدين ، اتق سخط الله تعالى ، فإن سخطه لا يقاومه سماء ولا أرض ، وإن فسدت حالي بما قلت فلعل الله يلطف بي ، ويكفيني هوائج الطباع ، ثم لا تفنا على ملازمة البيوت ، والاختفاء من العوام ، لأنهم إن سألونا لم نقل إلا ما يقتضي الاعظام لهذه القبائح ، أو الانكار لها ، والنياحة على الشريعة (ص ١٧٩) وهذه الفقرات وأمثالها المبثوثة في كتاب « الطبقات » تفصح عن كثير من سمات الحنابلة ، وصرامتهم في الخطاب وتجردهم من المداهنة والمراءاة .

وقد ألمّ — ابن عقيل — بسماتهم الجوهرية في الفقرة الجامعة التالية (ص ١٨٤) — والتي صدّر بها الناشران المحققان كتابهما فقال :

« هم قوم خشن ، تقلصت أخلاقهم عن المخالطة ، وغلظت طباعهم عن المداخلة ، وغلب عليهم الجد ، وقلّ عندهم الهزل ، وغربت نفوسهم عن ذل المراءاة ، وفزعوا عن الآراء إلى الروايات وتمسكوا بالظاهر تحرجاً من التأويل ، وغلبت عليهم الأعمال الصالحة فلم يدققوا في العلوم الغامضة ، بل دققوا في الورع وأخذوا ما ظهر من العلوم ، وما وراء ذلك قالوا : الله أعلم بما فيها من خشية باريها . ولم أحفظ على أحد منهم تشبيهاً ، إنما غلبت عليهم الشناعة (١) لإيمانهم بظواهر الآي والأخبار ، من غير تأويل ولا إنكار ... »

وبالنظر لما اتسم الكثير منهم بالصراحة في القول ، وعنف بعضهم على أرباب الموبقات فقد وجدوا من الناس من كان يبسط ألسنتهم فيهم ، ومن كان يرميهم بالتعصب والكفر والتجسيم ، من كان يؤذونهم ايذاء شديداً ويكيدون لهم كيداً أليماً . فقد جاء في النقل أن أحد أعلامهم — الشريف أبو جعفر — مات بوضع السم في مداسه (ص ٢٩) وورد أيضاً ، أن قوماً زاروا « عبد الله الأنصاري » — ووضعوا تحت سجادته صنماً وادعوا عند السلطان أنه يتعبده ، ويذكر أن الله في صورته ! فلما نجا من كيدهم أخذوا يأمرون عليه ، حتى أخرجوه من وطنه (ص ٢٩) .

وعلى هذا الغرار ، لاقى الحنابلة في كل عصر ايذاء من العامة تارة ، وحرباً من الفقهاء المبرزين تارة ثانية ، ونضالاً من علماء الكلام ، ومن رجال الدولة أخيراً . ولكنهم لم

(١) أورد الناشران كلمة « الشناعة » ويغلب على ظني أنها « القناعة »

ينالوا هذه الحلات العنيفة في الذود عن معتقداتهم متأثرين بنهرة امامهم الأكبر — أحمد بن حنبل — الذي ضرب وسجن ليقول إن القرآن مخلوق ، فأبى ووقف — كما يقول الناشران في مقدمة الكتاب (م ١٠) عند عقيدته ، وهي أن القرآن غير مخلوق ، صامداً لم يلن ولم يفتر ، ولم تتأثر نفسه بما أصاب جسده ، ولقد بقي الامام متوجعاً مما أصابه من التعذيب حتى آخر أنفاسه » .

وكما أصاب الظلم أعلام الحنابلة في كل عصر ومصر ، فقد أصاب الظلم سيرهم المكنونة في الطبقات ، فهي لا تزال — كما يقول المحققان الفاضلان ، مخطوطة متفرقة في أطراف الأرض منها ما هو في العالم الشرقي ، ومنها ما هو في العالم الغربي لا يكاد يعنى بها الباحثون عناية صادقة ولا يستطيعون فهم العقلية الاسلامية والفرق والمذاهب فهماً عميقاً إلا إذا وقفوا على هذه الطبقات المخطوطة ، فأشبعوها درساً وبحثاً وتحليلاً ، وموازنة ومقارنة (م ١٢) »

ولقد أسهم المحققان في إعطاء فكرة كاملة عن العقلية الحنبلية بنشر طبقات ابن رجب وهو أوسع ما وصل إليهما من تراجم الحنابلة ويستطيع الباحث أن يجد فيه بغيته وأمنيته فهو كتاب يطوي تاريخهم ويضم طائفة من الأحاديث مقرونة بالأسانيد المفصلة المتقنة ، كما يحوي مسائل فقهية كثيرة ، وفتاوى عرض منها المؤلف عرضاً غير قليل ، وهو إلى هذا كله جامع لبعض أشعارهم ، (م ٢٢) وكل هذه النواحي تناولها المؤلف في أسلوب واضح وعبارة سلسة تغلب عليها القوة والمتانة . (م ٢٨) .

وإذا طاب لبعض الباحثين دراسة هذه الطبقات لما وعت من تراجم ، وما حوت من أحاديث ومسائل فقهية ، فانه يطيب للمصريين دراسة هذا الطابع من الرجال على ضوء سيكولوجي جديد ، وهو ما حاولناه في هذا البحث الوجيز كما يشوقهم دراسة نواحي اجتهادهم في المعاملات ، ونظرهم إلى المصلحة كعنصر من عناصر التشريع نظرة رحيبة ، مما دعا المشرعون المصريون إلى المراد لآرائهم في تعديل بعض الأحكام الخاصة بالأحوال الشخصية ، والوقف ، والمواريث ، والوصية . ولمثل هذه الاتجاهات التي يأنس بها المصريون ، والتي يجدون مادتها في هذه الطبقات ، يحق لنا أن نسجل للناشرين الجليلين : الدكتور هنري لاووست والدكتور سامي الدهان — أجل الحمد ، وأعمق العرفان ، لما أنفقا من جهد مقدور وتحقيق بارع صبور ، لبعث هذا المخطوط في أهاب بهي وقور .

وتأميلنا وثيق في متابعة هذين العالمين ، لبعث الجزء الثاني من هذه الطبقات ، وما يلم بها من المخطوطات الأخرى ، لتوفير المادة . وتهيئة العناصر اللازمة لدراسة النواحي المصرية الجديدة التي ألمعنا إليها .